جريدة الديار ٢٧/٨/٢٠٠٧

اعداد: ماري حدشيتي

سيادة.. حرية.. استقلال..

شعوب الأرض قاطبة تتوق الى السيادة والحرية والإستقلال. كل شعب يسعى أو يعبر عن سيادته، وعن حريته واستقلاله على طريقته الخاصة، طبعاً كل بلد بحسب مستوى وعيه. فمستوى الوعي، هو ما يحدد فهم إنسان تلك الشعوب لمعنى السيادة، مغزى الحرية وهدف الإستقلال..

إذا ما نظرنا نظرة شاملة لما يجري في العالم، لوجدنا أنه باسم إحقاق السيادة، وخلف تحقيق الحرية ونيل الإستقلال، تخاض الحروب على أنواعها (إقتصادية، عسكرية، نفسية..) دماء تُراق.. عيون تدمع.. شعوب تُباع.. أراض تغتصب.. ثروات طبيعية تُنتهك.. وإنسان يهوي.. وكأن مصيره سلعة أو ضريبة الحرية والإستقلال!

كل ذلك وأكثر، لماذا؟ أمن أجل السيادة، أم الحرية أو الإستقلال؟!

تُرى ما هي السيادة؟! هل هي كلمة تردد على الشفاه ام انها مفهوم إنساني يجب أن يمارسه المرء على نفسه أولا؟!!

السيادة الحقة تُترجم عملياً من خلال افعال الانسان.. هي التحكم بالنزوات الشخصية والرغبات الخاصة والترفع عن الأنانية والمآرب الفردية التي تضر بالمرء نفسه وتقوّض حياته قبل أن تسيء الى الآخرين. هذه السيادة التي يمارسها المرء على نفسه أولاً ومن ثم يتوسع في ممارستها من خلال التعاطي مع الآخر، فالعائلة، فالمجتمع، وهي التي تتعاطاها الدول فيما بينها حيث كل دولة تحترم سيادة الأخرى.

وماذا عن الحرية؟! فهل مصيرها ان تبقى مجرد كلمة فاقدة المعنى وفارغة المضمون ترددها الشفاه عبر الشعارات الرنانة؟! أليس للحرية بُعد ومعنى أعمق من ذلك؟!

لقد قرأت يوماً في أحد كتب علم الباطن الإنساني التالي: «الحرية لا تعطى بل تحقق، الحرية لا تمنّح بل واجب كل إنسان أن يسعى إليها ويناضل من أجلها عبر اكتسابه الوعي، وعبر ارتقائه بالوعي. هذا وكلما اكتسب المرء مزيداً من وعي، اتسع مدار الحرية او نطاقها، وصارت حريته أكثر شمولية. فالحرية كالإستقلال، نضال وعي ومسؤولية كفاح!...» وطبعاً ما يصح عن حرية الفرد ينطبق على حرية الشعب. الكل كمجموعة أجزاء. فعندما يتطور وعي الشعوب في ظل وعي إنسانها، تتوسع حينها مدار حريتها وبالتالي استقلاليتها.

وماذا عن الإستقلال؟! هل هو حق لكل شعب ولكل إنسان؟ وكيف يتحقق؟

إن الأحداث المتتالية التي تشهدها بعض الشعوب ليست سوى شهادة حية على اغتصاب كل معاني الاستقلال المنشود. اغتصاب يتكرر يوماً بعد يوم عبر اقتسام الأرض والتقاتل في سبيل تملكها.. عبر تجاهل كل الأنظمة والمبادىء الأخلاقية والقيم الإنسانية.. والأسوأ عبر ابتعاد المرء عن أخيه الإنسان والتصارع معه في معركة عنوانها «عدم المشاركة والتعايش في وطن واحد»..

ومن ثم ينادون بالاستقلال ويطالبون به؟ فما هو هذا الإستقلال الذي يدفع المرء الى الغاء الآخر ويسلبه سعادته؟!

هل هذا مفهوم الإستقلال؟!؟!

هنا، لا بد من التذكير بما ورد على لسان معلم حكيم حول مفهوم الإستقلال:

«الاستقلال مفهوم مقدس للحرية. وليس تكابراً أو غروراً أو تفرداً بالرأي. وما دام الإنسان أسير نزواته وأسير رغباته ومعتقداته، لن يعرف معنى الإستقلال الحقيقي أبداً!

وما دام هو منفتح الذهن، مترفع عن أنانيته ومآربه الشخصية، فهو يحيا الحرية والإستقلال، حتى وإن كان وراء القضبان!

فالإستقلال الحق هو استقلال الوعي عن اللاوعي!»

خلاصة القول، لا يبدو أن ثمة وجود للسيادة الفعلية، ولا للحرية المطلوبة، ولا للإستقلال المنشود من دون التوعية الى هذا الوعي الانساني الذي يتضمن، لا بل يستوجب تنظيماً ذاتياً يبدأ على مستوى الفرد ويتوسع في المجتمع فالوطن. كما ويتطلب رؤية واضحة لهدف نبيل يخدم المصلحة العامة والخير العام. هدف مبني على مبدأ «تطوير الإنسان اولاً»، بعيداً كل البعد عن معادلة «الغاية تبرر الوسيلة».

ختاماً استشهد بعبارة بلغية إقتطفتها من موسوعة علم الباطن الإنساني:

«ما كان الملك يوماً ملكاً على أرض، بل على شعب..

لان المكان فان، أما الإنسان فخالد!

المكان مادة، والمادة الى زوال..

والإنسان روح، والروح خالدة مدى الآزال..»

د. رانيا كفروني فرح